نظرية التفاعلية الرمزية Symbolic Interactionism

تمهيد:

إن سمة التطور أو التحديث من الخصائص العامة للنظرية السوسيولوجية وهذا ما أدى إلى ظهور أفكار جديدة في النظرية المعاصرة لم تعرفها النظريات الكلاسيكية، ومن هذه النظريات الحديثة التفاعلية الرمزية التي تندرج تحت النزعات السلوكية الاجتماعية، والتي ترجع جذورها إلى أواخر القرن 19 ميلادي واوائل القرن 20.

كما أنها تجمع تحليلات العديد من التخصصات السوسيو-سيكولوجية والثقافية المعاصرة في علم الاجتماع، وتعكس تحليلاتها مرحلة علمية جديدة ظهرت بصورة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، حيث ركزت على دراسة القضايا والمشكلات الصغرى micro sociologie analyse. (عبد الله محمد عبد الرحمن 2006 ص 165 166)

الجذور الفكرية لنظرية التفاعلية الرمزية:

يرجع ظهور التفاعلية الرمزية إلى النزاعات الاجتماعية السلوكية والتي تعرف أيضا بالنزاعات الاجتماعية النفسية التي تعود بدورها الى مجموعة من العلماء الأمريكيين والأوروبيين، سيما مدرسة شيكاغو التي تأسست في القرن 19 خاصة عندما نشر توماس كتابه عن الفلاح البولندي في بولندا وأفريقيا، أيضا إلى تحليلات روبرت ماك من جامعة هارفارد التي ركزت على دراسة الخصائص الحضرية والبيئة الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية التي تؤثر على عمليات التفاعل بين الجماعات المحلية.

كما ترتبط بإسهامات بعض علماء النفس والتربية والفلسفة والاجتماع وهذا ما ظهر في الإسهامات الأولى لكل من جورج ميد وعالم البراجماتية الشهير جون ديوي اللذان أسهما كثيرا في تطوير التحليلات السلوكية الواقعية، إلا أن تطور التفاعلية رمزية استمر بعد ميد و ديوي وهذا ما ظهر في إسهامات هاربرت بلومر وبارك توماس وايفرت هوجز اللذان تأثرا بروبرت بارك في مجال الدراسات الحضرية، ثم ترك هؤلاء جيلا من العلماء طوروا النظرية أكثر من السنوات الأخيرة من القرن العشرين. (عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 167، 168)

تعريف نظرية التفاعلية الرمزية:

يدور فكر التفاعلية رمزيـة حـول مفهـومين أساسـيين همـا الرمـوز symbols والمعـ انيmeanings فـ ي ضـ وء صـ ورة معينـ ة للمجتمـ ع المتفاعل (طلعت إبراهيم، كمال عبد الحميد، د ت، ص 120)

وقـد كـان هيربـرت بلـومر أحـد تلاميـذ ميـد أول مـن صـك مصـطلح التفاعل الرمزي وهو يشمل جانبين مـترابطين، جـانب عمليـة التفاعـل وأساسها الفعل الاجتماعي الموجه والذي يحمل معنى والجـانب الآخـر أن عملية التفاعل تتم من خلال نظام رمزي، والمنطلق هنـا أن الفعـل الاجتماعي الموجه للحصول على استجابة من الآخر يـؤدي إلـى عمليـة التفاعل التي ترتكز أساسا على الخاصية الرمزية للفعل.

والمتفاعلين هنا حسب بلـومر لا يتبعـون وصـفات اجتماعيـة ثقافيـة بشكل حتمي بل يقومون بتأويل معنـى الفعـل والرمـز، وبهـذا لا ينظـر للعمليات الاجتماعية وما ينتج عنها من بناءات اجتماعية وثقافية كأشياء ثابتة بل كعمليات دينامية متغيره ومفتوحة.

يلعب النظـام الرمـزي وخاصـة اللغـة دورا هامـا فعمليـات التفاعـل والاتصال تتضمن استخدام رموز دالة تؤول معانيهـا فـي إطـار خـبرات الجماعة وسياق الفعل، ومن ثم يعتبر اكتساب الفـرد للنظـام الرمـزي للجماعة أساس قدرته على التفاعـل وأيضـا أساسـا فـي تشـكيل ذاتـه وعقلـه ونموهمـا، وبالتـالي أسـاس تشـكيل مـا هـو اجتمـاعي ثقـافي (ابراهيم عيسى، 2008، ص 113)

إسهامات الرواد في التفاعلية الرمزية:

يعتبر تشارلز كولي وجورج هاربرت ميد وهـاربرت بلـومر مـن أبـرز ممثلي منظور التفاعلية الرمزية.

تشارلز كولي: يعتبر من أهـم رواد التفاعليـة الرمزيـة فـي الولايـات المتحدة حيث قام بدراسة المجتمع على اعتبار أنه نتاج التفـاعلات بيـن النـاس الـذين تعلم وا تفسـير مجموعـة متنوعـة مـن الرمـوز. (طلعـت إبراهيم، كمال عبد الحميد، د ت، ص 123)

جعل كولي تصورات الإنسان ذاته ولذوات الآخرين وتصوراته لما هو اجتماعي هي الحقائق الأساسية في حقيقة المجتمع، فهذا الأخير ما هو إلا نتاج عملية تفاعل بين الـذوات والعقـول، وبهـذا فهـو حقيقـة عقليـة

ليس لها وجود موضوعي مستقل عن تصورات الأفراد في إطار تفاعلهم، كما يرى أنه توجد جماعات أولية وسيطة تربط بين الفرد والمجتمع وهي التي تنمو في أطرها المثل الاجتماعية للفرد وتحقق طبيعته الإنسانية

كما يقول إن الذات والعقل لا يولد مع الانسان بل يتشكلان من خلال التفاعل مع الآخرين ونمو الذات هو وعي الإنسان بذاته ووعيه بذوات الآخرين ومن ثم وعيا اجتماعيا وهذا ما يتضح في مفهومه المرآة العاكسة للذات.

منهجيا يرى كولي أنه على الباحث أن لا يكتفي بملاحظة الظاهر بل عليه الغوص في فهم المعنى الذاتي للسلوك بمعرفة ما وراءه من حوافز وهو لا يقترب من مفهوم استبطان المعنى لدى فيبر. (ابراهيم عيسى عثمان، 2008 ص 117، 119)

جورج هاربرت ميد:(1863-1931) المؤسس الأول للتفاعلية الرمزية ومن أهم رواد الفكر الأمريكي حصل ميد على تعليمه الأساسي وتخرج من جامعة هارفارد وتأثر كثيرا بالفلاسفة البراجماتيين المنتمين لمدرسة جون ديوي، وخلال وجوده في ألمانيا تعلم كثيرا على أيدي العلماء الألمان في جامعة لينبرغ وبرلين، ثم عاد إلى أمريكا ليقابل زملائه جون ديوي وتشارلز كولي في جامعة ميتشيغان وشيكاغو، ولقد سعى ميد إلى وضع نظرية سيكولوجية عن الذات self تنتمي إلى التحليلات لعلم النفس الاجتماعي

جاء تحليلات ميد في عدد من المقالات والكتب عكست الإطار الفكري لميد الذي يجمع بين الفلسفة وعلم النفس والاجتماع، وتعتبر أهم الأسس للتفاعلية الرمزية هي:

الذات والعقل self and mind

التفاعل الاجتماعي social interaction

المعنى الرمزي symbolicmeaning (عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 172 173)

ويرى ميت أن الناس لا يتصرفون بشكل آلي بل يعطون معاني لأفعالهم ويأخذون في اعتبارهم ما يعتقده الآخرون والموقف situation الذي يوجدون فيه، كما أن التوقعات expectations ورد الفعل reaction الآخرين تؤثر بقوه في التصرف الفردي، كما أن

النـاس يعطـون معـاني للأشـياء ويتصـرفون علـى أساسـها (طلعـت إبراهيم، كمال عبد الحميد د ت، ص 124)

هربرت بلومر: يعد من بين أهم ممثلي التفاعليـة الرمزيـة وهـو مـن قـدم مصـطلح التفاعـل الرمـزي عـام 1937 فـي مقـاله علـم النفـس الاجتماعي، ويشير هذا المصطلح إلى الاتجاه الذي يمثله شـارلز كـولي ودبليو توماس وروبرت بـارك وبيرجـس وويليـام جيمـس وجـون ديـوي وجورج هربرت ميد، ثم تناول المصطلح في دراسـة لاحقـة لـه بعنـوان المجتمع والتفاعل الرمزي حيث يقول بلومر بأن ميد أكثر من الآخريــن مساهمة في وضع أساس هذا الاتجاه.

كما أثر مفهوم بلومر وليس ميد في التفاعليين الرمزيين سواء فــي أفكارهم أو دراستهم الميدانية. (نادية عمر الجولاني، 2009، ص 59)

وينظر بلومر إلى المجتمع على اعتبار أنـه نتـاج للتفاعـل الاجتمـاعي ويتـم خلقـه بطريقـة متطـورة ومسـتمرة، كمـا قـام بتطـبيق مـدخل التفاعلية الرمزية فـي دراسـة أشـكال السـلوك الجمعـي مثـل دراسـة الحشد crowd، ويرى أن المشكلات الاجتماعية يتم الإشارة إليها غالبـا على اعتبار أنها نتـاج للتعريـف الجمعـي الـذي يظهـر مـن خلال عمليـة التفاعل الاجتماعي أكثر مما ينظر إليها باعتبارها نتيجة حتميـة لظـروف موضوعية.

يرتكز التفاعل رمزي عند بلومر على ثلاث مقدمات منطقية هي:

- الكائنات الإنسانية تسلك إزاء الاشياء في ضوء ما تنطوي عليـه هـذه الاشياء من معاني ظاهره لهم.
- أن هذه المعاني هي نتائج التفاعل الاجتماعي في المجتمع الإنساني.
- أن هـذه المعـاني تتعـدل وتتشـكل مـن خلال عمليـه التأويـل الـتي يستخدمها كل فرد في تعامله مع الرموز التي تواجهه.

وبناءا على هـذه الأسـس يصـبح التفاعـل الرمـزي مخططـا تحليليـا للمجتمع الإنساني يختلف عن بقية المخططات وتتفق معظـم مـدارس التفاعلية الرمزيـة علـى التسـليم بـأن الكائنـات الانسـانية إنمـا تسـوغ الواقع الذي تعيش فيه من خلال عمليـة التفاعـل الاجتمـاعي. (طلعـت ابراهيم، كمال عبد الحميد، دت، ص 124، 125)

تقييم نظرية التفاعلية الرمزية:

هناك العديد من المزايا التفاعلية الرمزية إذ تصور أعضـاء المجتمـع على اعتبار أنهم كائنات حية نشطة لديهم القدرة على التفكير وتشكيل

حياة اجتماعية، كما تهتم بأفعال الناس الواقعية وتحديد المعاني التي يعطيها الناس لأفعالهم وأفعال الآخرين، وعلى عكس المفهومات المجردة في المنظور الوظيفي ومنظور الصراع توجه التفاعلية الرمزية اهتمامها إلى التفاصيل المحسوسة للحياة البشرية من خلال ملاحظة الأفراد. (طلعت ابراهيم، كمال عبد الحميد، دت، ص 130)

لكن بالرغم من أهمية التفاعلية الرمزية وإثرائها لمجال النظرية السوسيولوجية المعاصرة إلا أنها تعرضت للعديد من الانتقادات مثل ما ظهر في رد فعل أحد روادها المعاصرين سيلدون سترايكر كما يلي:

- تخلت كثيرا عن استعمال الأساليب العلمية التقليدية خاصة أن بعض رواد يرون صعوبة استعمال الأساليب الكمية في القضايا التي تهتم بالذات والوعي مما أبعدهم عن الموضوعية.

- وجود العديد من التحليلات الغامضة فيها مثل تحليلات ميد حول الذات والعقل والعلاقة بينهم،ا مما جعل الكثير من آرائه مبهمة وغير قابلة للاختبار وعدم الوصول للقوانين حول التفاعلية الرمزية.

- لم تهتم التفاعلية الرمزية في معظم تحليلاتها بدراسة البناءات الكبرى large structure مما جعلها غير قابلة للتنبؤ، خاصة في القضايا التي درستها نظريا وميدانيا في نفس الوقت.

- أخفقت التفاعلية الرمزية في تحليل الكثير من المفهومات والتصورات السيكولوجية إن لم تكن أهملتها تماما مثل الحاجات، الدوافع، التوتر، الإلهام، وركزت فقط على دراسة المعاني والرموز والفعل والتفاعل.

- سعت التفاعلية الرمزية إلى دراسة المواقف الحياتية التي تتميز بالمواقف السريعة والسطحية دون التعمق في فهم التفاعل الذي يحدث في المواقف غير الظاهرة في المجتمع مثل الجريمة والانحراف والخلل الاجتماعي عموما.

- أهملت التفاعلية الرمزية دراسته البناءات الاجتماعية الكبرى واهتمت فقط بالقضايا الصغيرة مثل التفاعل والرمز والمعنى. (عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 201، 202).